وجه من بلادي

الصورة بعدسة : عبدالله العبري

وجه من بلادي

إيه أيها العمر المكابر
والزمن الهادر..
كساقية فلج في زمن الخصب،
جفّت حقول يراودها جريان السنين
حين أينع خريفي
وما زالت الأرض سخية..
ترتوي حقولها من ربيع الحياة ..
والحياة فصول يا أبي
زرعوا فأكلت
وفسلت راحتيك لراحة أجيال
بعدك.
هكذا زرعتك الحياة شجرة طيبة
على أرض لا تنبت إلا طيبا
فكن في سعادة.. ابتِ.

الوالد يستعيد حسرة ضياع المجد العماني في أفريقيا.. ولقاءات العمانيين في بمبي

حمود بن سالم السيابي

رجعت الى حيث الوالد وبشدور يجادلان بائعا هنديا جاء الى سنجم ببضاعة مزجاة هي عبارة عن شنطة من قوارير العطر عرضها على الوالد بسعر خمسمائة روبية للقارورة الواحدة، ففتحها الوالد وقال للبائع عبر المترجم بشدور إنها لا تساوي اكثر من خمس وعشرين روبية ، فقلت للوالد ان الفرق بينكما كبير، فرد الوالد: سيبيعها حتى بأقل من هذا المبلغ، وبعد جدال بين (البائع العيار) والوالد إذا بالأسعار تتدحرج من علياء الخمسمائة الى الأربع الى الثلاث إلى المائة، إلى إلحاح البائع على الوالد انه سيبيعه إياها بخمس وعشرين روبية، والوالد هذه المرة هو الذي يرفض شراءها، فيما البائع يلح وسط ضحكات الوالد من هذا البائع الذي يمكن لبضاعته أن تتدحرج من علياء الخمسمائة الى قاع الخمس روبيات فقط..

جاء غداء سنجم كما تقول الهبية العمانية: «رنزة وعوالة ومرشوشة بسمن» وكان ألذّ من برياني دبلومات رغم كل الزعفران والمكسرات وقطع البيض في برياني الفندق .وقد أعادتنا وجبة العوال في سنجم إلى عمان حيث الأكل الهنيء بطعمه، لا بغنى، ناصره، وببساطته لا بتعقيدات مكوناته، وبالتحلق حول الصينية الكبيرة، لا بالتخشب في الكراسي، والتقيد بإتيكات المائدة. أنهينا وجبة سنجم بصحن تمر محمد بن جمعة، وقهوة بشدور، ثم صدح الوالد بتكبيراته التي تهز الحجيرات الخشبية في سنجم ليؤم الناس بصلاة الظهرين، وودعنا ذلك الجمع الطيب من العمانيين الذين جعلوا من سنجم مناخا تهفو اليه النفوس رغم قدم المكان، وضيق غرفه، واعتماده على الفواصل الخشبية بين جدرانه، الا ان روح المكان أجمل ما في المكان .

خرجنا بصحبة بشدور إلى اسواق بمبي والوالد يردد قوله

بمبي احتفظت في أديمها بالسلطان تيمور

تعالى «اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم»، حيث استوقف الوالد محلا لتاجر بملامحه الاقرب الى ملامح (جلاب) ذلك البانيان الذي يعرفه الوالد ويتردد على محله في مدخل سوق الذهب بمطرح لأنه يبيع كل شيء بدءا بقدور الطبخ الى أواني القهوة والشاي، إلى الواح الشوكولا السويسرية، مرورا بزجاجات اليود (الآيدين) إلى (الستيمه)، والإبر التي تنقش ترسبات رأس الستيمه، وانتهاء بقناديل البتريمكس والمصابيح اليدوية (البجالي).

وبينما نتأمل ملامح هذا الجلاب الاشبه بجلاب سوق مطرح إذا بالوالد يطلق صيحة نداء من بعيد إلى صهره الشيخ خلف بن محمد الخروصي في نخل (تعال .. تعال ... تعال خلف بسرك اللي تبيعه للبانيان ببهار هنا يباع بالحبة، واللي أنت تتعب عليه و تكيسه في جواني، هنا يعرضوه في غرش شاكليت) اقترب الوالد من دكان جلاب بمبي يسأل عن البسر الذي قال له البائع إن هذا نوع من المكسرات، وهو مفخرة موائدنا وجلساتنا لمن له أسنان، والبعض يدخله في الصناعات الغذائية، تناول الوالد بسرة منها وجلس يتأملها وكأنه يسائلها ما إذا كانت اكتسبت هذا اللون من طينة مقصورته في الصافية، أو ربما ارتوت من فلج (بلفاعي)، أو سافرت الى الهند من مقصورة تشرب من فلج (كبه) أو تعب في جدادها (باروت) وهو يحز عذقها من نخلة تغمرها مياه (الهابوطية) في شاذون.

واصلنا التجوال ومنظر بسر عمان المجفف والمعروض في زجاجات في بمبي كنوع من اثمن المكسرات يعيد بالذاكرة الى تركبة سبلة (المظلة) وليالي مساطيح نخل وقهوة سعيد العطيشاني وسعن عبدالله بن سرور الغشري المثقل بماء عين قرطبانة، ومشاهد احتفاء مساطيح ولايات عمان بوفود من كيمجي وطالب بن محمد يتسابقون لشراء البسر من مساطيح سيف الشطف بسمائل، ومساطيح الحرث والحجريين في الشرقية بعد أن ملأوا (بخاخيرهم) ببسر نزوى وازكي وبهلا وعبري. كان سوق (جريفت ماركت) كما يسميه بشدور هو مقصدنا في نهاية المشوار، حيث تعرض بمبي أثمن ما لديها من شالات وحرائر وساري، وأحدث ما تنتجه الماكنة الهندية قبل أن ترسله الى سوق الظلام في مطرح، وسوق الباب الصغير في مسقط، لتتحول الى دشداشة عيد تختال بها مطرحية في جيدان واللولوة والشجيعية، أو مسقطية في المدبغة ومغب وميابين ، أو دشداشة عرس تتزين بها صبية في عقر نزوى والغنتق ودارس.

وجريفت ماركت هو تحريف من مرافقنا بشدور، فاسمه الحقيقي هو (كراو فورد ماركت) تيمنا بحاكم المدينة الانجليزي آرثر كراوفورد، والسوق بطرازه الفيكتوري المفعم بالروح الهندية أشبه بمحطة قطار، وتعلو المبنى ساعة بأربعة أوجه ترتفع على برج ليهتدى إليه من بعيد. وقد أكسبه اللون البني الكثير من الحميمية والدفء ليلون افق بمبي المضبب والماطر. والزائر العماني لكراوفورد يرى فيه بذخ الهند واناقتها وسحرها، والباعة داخل محلاته لهم ألفة تأسر الزبون لدرجة انهم مستنسخون من تجار مطرح، فكأنه خرج من خور بمبه ليدخل كراوفورد، فتصافحه ذات

بعض معروضات كروافورد ماركيت

الراني باغ أو باغ الراني أشهر متنزهات بمبي وقد زاره الوالد

الوجوه التي ودعها في مسقط .

والأسعار فيه تتحدد طبقا لاسم التاجر وحجم تجارته، فالكبار هنا ملتزمون ببيع بضاعتهم طبقا للأسعار الفعلية لها، اما الصغار فهم مجرد باعة في المحل، وليسوا ملاكا له، و يحددون الاسعار وفق نظرتهم للزبون الغريب، فيضاربون بالأسعار ويغالون فيها، وربما نصفها لمالك المحل، ونصفها الاخر لجيوبهم ثمنا لشطارتهم في فن التسويق، واستثمار جهل الزبون. وكراوفورد سوق كبير وممتد لمساحات كبيرة في قلب بمبي، والزبائن معظمهم من أبناء الهند نفسها، مع خليط من بلدان الخليج ومن الاوروبيين. والاكياس التي تتدلى من أيدي الزبائن ومن الحمالين الذي يتبعونهم كظلهم تشير إلى حيوية السوق ورواج بضاعته. وسوق كراوفورد هو أحد اهم عشر أسواق في بمبي قبل أن تدخل ثقافة المولات حياة العواصم، وتصبح متنفسها وسوقها وعصب اقتصادها.

ومن محلات هذه الأسواق العشر كانت مسقط تغترف ودول الخليج تتبضع، وإليها يهفو التجار ليشتروا البسمتي والسوجندي والزيرة والجرداء، ومنها يملأون السفن بجواني السيلانية والبربرية والدهماء، ومن مخازنها يحملون السمن الحداني وزجاجات شربت روح أفزا، وطاقات البفتة والساسوني، وعطور الريفدور وبنت السودان. وفي هذه الاسواق خسر محمد الشيبة السالمي عشرين الف قرش جاء ليتبضع بها لدكانه في العيجة بصور، ومن هذه الأسواق ربح الآلاف من التجار الذين يتخيرون البضاعة ويتخيرون مواسم البيع. ثم تابعنا الطريق لنجد أنفسنا أمام مسجد فخم البناء فدخلناه بدافع الشعور بعزة الاسلام الذي يرفع الاذان وسط هذا الخضم البشري من عباد البقر وعباد بوذا. المسجد هو مسجد الجامع، وقد عرفه لنا بشدور بمسجد القصاب، والإمام فيه يسمى محمد بن ابراهيم، وهو شافعي المذهب كما قال للوالد، الذي دخل معه في حوار معمق حول المذاهب والفرق والملل والنحل، وعن كل ما يتصل بالإسلام والمسلمين في هذه البقعة الهندوسية الكافرة .

والمسجد بني عام ١٧٧٠ واستغرق بناؤه ربع قرن حين افتتح عام ١٨٠٢، ويتميز بطول مآذنه التي تتسامى في السماء بحي على الصلاة في صخب بمبي الهندوسية التي يمثل المسلمون قرابة ١٧٪ من سكانها، وينسجم بناء المسجد بلون حجارته مع مشهد السوق ببذخ معماره ليكونا معا لوحة لمدينة تشرئب بعنفوان لعصر الصواريخ والذرة، وتقنية نظم المعلومات، ولكنها لا تبتعد عن القيم الروحية التي تغترف منها العنفوان، وتدفعها للتقدم والتفوق والمنافسة، وحين كنا نجول في المسجد كانت جموع المصلين تتوافد تلبية للنداء، والشيخ محمد بن إبراهيم شمر ساعديه من أكمام قميص الباتان الذي يرتديه استعدادا للوضوء من

دعوة تعود لخمسينيات القرن العشرين وفيها يدعو حيدر درويش الوالد لحضور عقد قران نجله في بمبي

رسالة بعثها الشيخ احمد بن محمد الحارثي من بمبي للوالد وتحمل شعار فندق بمبي انترناشنال

الميضأة التي تمثل هي الأخرى تحفة معمارية تليق بعراقة المسجد، و تتآلف مع الحوض المائي الذي يحيط بمدخل المسجد كإحاطة الخندق بمسقط القديمة .

حمدنا الله على نعمة الإسلام الذي دخل الهند على يد مالك ابن دينار في السنوات الأولى للهجرة ليقيم أحد أقدم مساجد الإسلام في التاريخ بمدينة كوتشين في كيرالا، في نفس الفترة التي اقيمت فيها مساجد المدينة المنورة، والمضمار في سمائل، وغيرها من حواضر الإسلام. و منذ ذلك اليوم والإسلام يكسب أرضا جديدة ومسلمين جددا، نقرأ نتاجاتهم العظيمة كما سيرد ذلك في باب البحث عن الوجه الآخر لبمبي .ودعنا بشدور عند مدخل دبلومات حيث استقل نفس التاكسي عائدا الى سنجم بروحه العمانية وحكاياته وسبلاته، وأرزه وعواله، ونصائح كاكاه التي يطلقها لمن يجد فيه الاذن الصاغية حتى لا تضيعه الهند، وحتى لا يبدد حصاد العمر في سفاسف الامور .

كانت غرفة دبلومات باردة فالرجل الذي نظف الغرفة لم يغلق المكيف كعادته، فاستسلمت أنا للنوم تاركا الوالد مع أنيس منصور يسافر به بلدانا لم تسنح للوالد ان يزورها، رغم عشقه كمؤرخ لرؤية الشعوب التي ملأت كل الجغرافيا بكل هذا التاريخ. يوم مشمس آخر من أيام صيف مايو يتسلل من بلكونة الفندق وموعد جديد مع بشدور ليأخذنا الى (الراني باغ) او (باغ الراني) كما التقطته اذني وانا طفل في نخل من لسان جدي خلف بن محمد الخروصي في سبلة غرفة الصباح وهو يحدثنا عن الهند التي زارها. كان باغ الراني في الحكايات النخلية أعجوبة من أعاجيب الهند وهو كذلك حين زرناه، حيث يجمع بين المنتزه وحديقة الحيوان، ويقصده عشاق الطبيعة ومحبو الزهور النادرة والنبتات البرية الى جانب الحيوانات والطيور والزواحف وأنواع الحشرات. ويتميز بحسن التنسيق وجمال التقسيم لمحتوياته فضلا عن اتساع مساحته ليجمع الالوف المؤلفة من الزائرين ومع ذلك يبدو خاليا لاتساعه.

افترشنا عشب المكان تحت ظلال شجرة معمرة احتضنت قبلنا العشاق والشعراء، ونجوم السينما وتلامذة الحكمة الهندية، وها هي تضيفنا الى قائمتها لتروي إلى من سياتي بعدنا قصة شيخ عماني بعمامته ولحيته ووقاره جلس تحتها يتأمل سحر المكان وجماله فيما، عينه تدمع وهو يتذكر الوعد الصادق للخالق الذي ادخر لعباده جنانا بها ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على بال

بشر، «ولا يلقاها إلا الذين صبروا ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم». الجلسة في الراني باغ وتحت شجرته المعمرة كانت مقاربة فلسفية بين جمال الدنيا المهدد بالشحوب الذي يمثل الراني الباغ احد أمثلته، وبين الجمال الخالد الذي لا يفنى. وبين شقاء الروح في زمن محسوب علينا، وبين السعادة الابدية والتقلب في النعيم.

كان بشدور يومئ برأسه موافقا فربما فهم ما يقصده الوالد، وربما لا تزال ماريام شاغله الفلسفي العابر، وربما يثيره سحر المكان فيتذكرها، ونحن نحرث بأقدامنا الدروب المرسومة بالريشة والمضفرة بالورد كان الوالد يترنم بأعذب شعره:

آن الرحيل ودقت ساعة السفر

فهل تزودت ما يحمي من الخطر

ان الطريق بعيد ليس يقطعه

الا همام مشى في غاية الحذر

هذا الطريق الى العلياء نهايته

وقد يؤدي الى التدمير للفطر

هذا الطريق قد امتدت قواطعه

فلم يجزه سوى شهم عليه جرى

والشهم من جاء بالأعمال صالحة

تواكب الدين والدنيا على حذر

أما أنا فاستحضرت طاغور ذلك البنجالي الذي يسكنه الانسان، وتسحره الطبيعة، فيأسر القراء بعذوبة شجنه وأنينه، استحضرته ليتأمل مثلي هذه الشجرة التي خلد أسلافها في بعض مقاطعه :

«إن الارض تتمسك بالشجرة المنتصبة فوقها

لما تزجيه لها من خدمات

اما السماء فتدع الشجرة حرة

ولا تطلب منها أي شيء».

قبل أن تغرب شمس ذلك اليوم الذي أمضيناه في باغ الراني، كنا في ساحل شوباتي حيث تغتسل بمبي وتتشاقى في مهرجان مفتوح بين شاب يدفن كل جسمه في الرمال ولا يترك الا فتحتي انفه للتنفس، وبين من يملأ فمه بالكيروسين

جلالة السلطان سعيد بن تيمور يحضر أول عيد استقلال للهند

فيخرجه لسانا من نار، وبين من يرمي بالسهام، ومن يلاعب القردة، ومن يعزف مزامير تتمايل على أنغامها الكوبرا، ومن يرقص ويغني ويتسول ويتسابق ويبكي ويهرج، إلى جانب هواة تطيير الطائرات الورقية والباعة الجائلين الذين يغرون الاطفال بمعروضاتهم من اللعب والبوضة والمشروبات الباردة، الى جانب طهاة (المرمريه واللدو والزلابيا والبكوراه واللقيمات) وغيرها من الوجبات الخفيفة التي تشبع الجائع وبابخس الاثمان.

جذبنا ثلاثة مقاعد من المقهى في ساحل شوباتي مبتعدين عن الضوضاء، وجلسنا نتأمل بمبي وأهلها بينما طائرة عظيمة تخترق الأفق على ارتفاع منخفض محدثة دويا هائلا فقال الوالد وهو يستشعر عظمة الخالق على الخلائق، وقد ألهمهم لأن يجعلوا من هذه القلعة الحديدية تطير بهذه الخفة والرشاقة في السماء، لتختزل المسافات بين القارات، حيث كان المسافر يحتاج لأسابيع في البحر وينتظر حركة الرياح لتنقله من شطآن عمان إلى شطآن الهند، في حين أنه يمضيها الآن وهو يقرأ الجريدة، ويتناول الشاي حتى يعلن الطيار موعد الهبوط .